الشعر الأندلسي

من أكبر مميزات الشعر الأندلسي التي تطالعنا عند بحثه أولاً ، أنه شعر حضري لا جاهلية له . وليس يشبهه في ذلك شعر قطر من الأقطار العربية . حتى العراق الذي بذ الأندلس في الحضارة نجد في شعره أثارة من هذه الجاهلية لا تخفى على الناقد البصير . أما في الألفاظ فانها تكاد تلمس ، وأما في المعاني فان رواسب من أفكار شعراء الجاهلية لا تفتأ تطفو حيناً بعد حين على صفحة هذا الشعر الرقراق الذي قيل - ويقال حتى الآن - عند ضفاف الرافدين .

ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية الى جساوة في الطباع ، وقساوة في البقاع ، فان الاقليم في الشرق ، ولو في العراق ، غيره في الغرب ولا سيما الأندلس . والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلظة ، ولينا وشدة ، ما في ذلك شك . وقد كان شعراء العراق كغيرهم ، يخرجون الى البادية ، فيتنقلون في القبائل لأخذ اللغة عن أربابها ، وتعلم الفصاحة من أصحابها ، كما نرى في ترجمة المتنبي والبحتري وأضرابهما ، فلزمتهم هذه البداوة وظهر أثرها في شعرهم . وأين هي هذه البادية من شعراء الأندلس الذين ولدوا في بحبوحة الحضارة ونشأوا في غضارة الترف ، فولد الشعر معهم ونشأ حضرياً مترفاً .

ومن بدا منهم كابن عبدون فانما قصاراه من البداوة المظهر الذي غرّ الوزير أبا بكر بن زهر[1] ، وأما المخبر ، فانه الذي انجلى عن قصيدة :

« الدهر يفجع بعد العين بالأثر »

---

(١) انظر حكايته معه في المعجب للمراكشي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما هؤلاء الشعراء الذين طرأوا مع الفتح من مثل أبي الخطار الكلابي والصميل بن حاتم فانهم وان كانوا يذهبون في شعرهم مذهب أهل الجاهلية ، فاننا لا نعدهم بحال من شعراء الأندلس ، لأنهم لم ينشأوا فيها ولم يشتهروا بشعر كثير فيؤثروا فيمن أتى بعدهم ، فبقي الشعر الأندلسي مصوناً من عنجهية البدو ، لا جاهلية له مطلقاً .

ولقد استمر الحال بعد الفتح على ما يقتضيه طور التمهيد والتنظيم من الانصراف عن شؤون الأدب والشعر الى أن قدم عبد الرحمن الداخل ، أي نحواً من ٤٦ سنة . وحينئذ انفسح المجال أمام شعراء الأندلس للتحليق في جو « الصقر »[١] الذي ألقى الى النخلة بهذه النفثة السحرية :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول اكتآبي عن بنيّ وعن أهلي

ومن ذلك اليوم تحدد موقع الشعر في الجزيرة ، فمن الوجهة الاجتماعية كان الأمير المنشئ للدولة المؤثل لمجد الاسلام شاعراً يعبر عن عواطفه بشعر بليغ ونظم رقيق ، فلم يستنكف من أتى بعده من الشعراء أن ينسجوا على منواله في تعاطي الشعر وحب الأدب حتى كان كل أمراء بني أمية وخلفائهم تقريباً شعراء . وكذا ملوك الطوائف الذين خلفوهم من بعد ، والناس على دين ملوكهم كما يقال ، فقامت للشعر دولة ببلاد الأندلس لم يكن له مثلها بالبلاد الأخرى . وبينما كان « الشعر بالعلماء يزرى » في المشرق كما أتى في بيت للشافعي رحمه الله[٢] ، كان العلماء في الأندلس يتسابقون لنظم الشعر ويتباهون بمعرفته ، ولا يعدون العالم كاملاً إلا إذا شارك في علوم الأدب بأوفر نصيب[٣] .

---

(١) يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش .
(٢) وهو قوله :
ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد
(٣) انظر الرافعي ، ص ٢٨٥ تاريخ آداب العرب ج ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولهذه المكانة التي كانت له في النفوس كثرت رغبة الناس فيه ، وصار طلبة الخاصة والعامة ، حتى قيل في مدينة شلب ان قليلاً من أهلها من لا يقول الشعر ، ولو مررت بالفلاح في فدانه وسألته عن الشعر قرض في الحال ما اقترحته عليه[1] .

ومن الوجهة الأدبية ، فان الشعر في الأندلس لم يكن رجعاً لصدى الشعراء القدماء ولا طبعاً على الرواسم (الكليشيات) المعهودة ، فان عبد الرحمن لما كان فريداً غريباً في بلاد غير بلاده ورأى النخلة في موطن غير موطنها أشبه شيء به ، هاجت شاعريته ونطق بذلك الشعر الذي عبر عن ذات نفسه ، ولم يكن صنعة ولا زوراً من القول ، فلفت نظر الشعراء بعده الى هذه الطبيعة البديعة ، أو قل ان هذه الطبيعة التي أنطقته ، لفتت نظرهم الى جمالها الفتان وسحرها العجيب فقالوا فيها ما شاءوا وتفننوا ما أرادوا .

ومن ثم كان أكثر شعرهم في الوصف والتصوير ولا سيما لمظاهر الطبيعة من الرياض والأزهار ، والجبال والأنهار ، والسحاب والأمطار ، حتى عدّ ابن خفاجة أكثر وصّاف الطبيعة وأحسنهم قولاً فيها ، وألف أبو الوليد الحميري من أدبائهم كتاباً كاملاً من شعرهم في نعت الرياحين والزهور سماه «البديع في وصف الربيع» وهو ممن عاش في أول القرن الرابع ، فما بالك بما قيل بعده في هذا الصدد ؟

ولعل أول شاعر أندلسي يمثل بروحه الخفيفة وأدبه المرح ، هذا المحيط الحضري الرائق الذي نشأ فيه الشعر الأندلسي ، هو يحيى الغزال المتوفى حوالي سنة ٢٥٠ ، وشعره مرآة صادقة لنفسه الطروب ، وقد كان ذهب سفيراً الى بلاد الروم فأعجب به الملك والملكة أيما اعجاب لفرط أدبه وجماله ، وجرت له مع الملكة محاورات جميلة ، وقال في ذلك أشعاراً لطيفة .

---

(١) ياقوت في معجم البلدان .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم يأتي بعده أديب الأندلس أحمد بن عبد ربه مؤلف كتاب «العقد» المعروف، وكان الجو الأدبي بالأندلس يزداد صفاء كل يوم فلذلك جاء شعره ينفح بعطر الحضارة ويكاد يشرب من رقته وعذوبته، وهو ان ألف اقوامه أدب المشارقة، فقد أعطى لهؤلاء نماذج من أدب الأندلس في مقطوعاته البديعة التي ضمنها كتابه الفريد. ولئن قال الصاحب ابن عباد في العقد لما وقف عليه، «هذه بضاعتنا ردت الينا» فلقد قال المتنبي في صاحب العقد، «ايه يابن عبد ربه، لقد تأتيك العراق حبوا» وذلك عندما سمع أبياته العديمة النظير :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله دراً يعود من الحياة عقيقا
واذا نظرت الى محاسن وجهه ألفيت وجهاً في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا (١)

وقد كان هذان الأديبان هما طرفا الأدب في القرن الثالث (٢) وذكرهما يغني عن ذكر غيرهما .

فلما دخل القرن الرابع دخلت الأندلس ... في عصرها الذهبي، حيث بلغ التمدن بها أوجه تحت حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والمنصور ابن أبي عامر فانتشرت العلوم والفنون، وارتقى المستوى الفكري غاية لم يصلها من قبل .

وفي هذا العصر كان التعليم قد عم سائر الطبقات، فقلما تجد انساناً لا يعرف القراءة والكتابة، والرجال والنساء في ذلك سواء (٣) واذا عمّ التعليم بهذه الصفة تنبهت المشاعر وتهذبت الأذواق ونشطت الحركة الأدبية من عقالها وتقدمت

(١) المقري في نفح الطيب ج ٤ ص ٢١٨
(٢) الرافعي في تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٧٥
(٣) دوزي في كتابه الاسلام الاسباني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أشواطاً بعيدة في ميدان الابتكار والتجديد ، لأن الأمة التي نضجت أفكارها لا تقبل من الانتاج إلا ما كان حرياً بالقبول . وكان من أثر هذا النضج الأدبي اختراع الموشحات التي صارت زينة الشعر العربي ، وهي هدية المغرب الى المشرق التي تقبلها بكامل السرور وسنتكلم عنها فيما بعد .

وقد أظل هذا العصر كبار شعراء الأندلس من مثل أبي القاسم بن هانئ وابن درّاج القسطلي والرمادي ، وناهيك بهؤلاء الثلاثة .

فأما ابن هانئ فهو الذي يقال له متنبيء المغرب ، عاش عيشة الاستهتار حتى تألب عليه أهل بلدة اشبيلية وخرج منها ولحق بالعدوة فلقي الخليفة المعز الفاطمي ومدحه فحظي عنده وكان يريد استصحابه الى مصر ، فمات مختضراً في عنفوان الشباب نتيجة اسرافه في السكر والمجون .

ولما بلغت وفاته المعز أسف عليه وقال : هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . وكان يذهب في شعره مذاهب شتى من التفلسف والاستخفاف بالدين ونقد المجتمع . وله أسلوب متين وعبارة جزلة ، واشتهر بحسن التشبيه وإجادة الوصف . ومن جيد شعره قوله :

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

وبات لنا ساق يقوم على الدّجا ... بشمعة صبح لا تقط ولا تطفا

أغن غضيض خفف اللين قده ... وثقلت الصهباء أجفانه الوطفا

ولم يبق ارعاش المدام له يداً ... ولم يبق اعنات التثني له عطفا

الى آخرها وهي قصيدة شهيرة .

وأما ابن دراج فقال فيه الشقندي : انه شاعر الأندلس . وقال الثعالبي : هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام ، وكان شاعر الدولة العامرية غير مدافع ، وتأخر به الزمان الى أوائل القرن الخامس ، وأدرك ملوك الطوائف . وله القصيدة الرائية الرائعة التي عارض بها أبا نواس فأربى عليه ، وفيها يقول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى ... وأن بيوت العاجزين قبور

وان خطيرات المهالك ضمن ... لراكبها ان الجزاء خطير

وأما الرمادي فهو يوسف بن هرون الكندي . كان معاصراً للمتنبي ، وكان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة ، يعنون امرأ القيس في الافتتاح لأنه من كندة على ما هو معروف ، والمتنبي والرمادي في الاختتام لانتسابهما معاً في كندة [١] . وكان شاعر الحكم المستنصر واختص بالحاجب المصحفي فأصابه شرر النكبة التي أنزلها المنصور ابن أبي عامر بالحاجب المذكور ، وله من قصيدة هذه الأبيات البليغة .

في أي جارحة أصون معذبي ... سلمت من التعذيب والتنكيل

ان قلت في عيني فثم مدامعي ... أو قلت في قلبي فثم غليلي

لكن جعلت له المسامع موضعاً ... وحجبتها عن عذل كل عذول

واذا تخطينا عتبة القرن الرابع الى الخامس ، عصر ملوك الطوائف ، وجدنا أن هيبة الخلافة الأموية وعزة سلطانها وان زالا معها فان مجدها الأدبي بقي متمثلاً في عدة عواصم بعد أن كان محصوراً في قرطبة ... فهذه اشبيلية وفيها بنو عباد أصبحت تنافس قرطبة وتجاذبها رداء الفخار في هذا المضمار ، وهذه طليطلة - وفيها بنو ذي النون - وسرقسطة - وفيها بنو هود - وبطليوس - وفيها بنو الأفطس - وغرناطة - وفيها بنو زيري - والمرية - وفيها بنو صادح - ومالقة - وفيها بنو حمود - في كل منها بلاط حافل بأهل العلم والأدب وملوك يتسابقون الى الحصول على المشاهير من الكتاب والشعراء (فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني) [٢] .

---

(١) ابن خلكان

(٢) الشقندي في رسالة المفاضلة بين الأندلس والمغرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واذا كانت قرطبة قد احتجنت في عهد الخلافة الأموية سائر أهل الكفاءات الأدبية ، فقد أدبلت منها هذه العواصم الأخرى ، وكان ذلك في صالح العلم والأدب حيث ان ازدحام البلاط القرطبي بأهل الفضل والنبل كان لا يدع مجالاً للناشئين والوافدين من غير أهل الشهرة . وحسبك بما وقع لصاعد في أيام المنصور بن أبي عامر وما قاساه من مكائد المنافسين له . وأما الآن فان الأديب أصبح بالخيار على زمنه ، وحكمه نافذ على أميره ، لأنه اذا آنس اهمالاً أو تضييعاً سرعان ما يتحول الى حيث العز والكرامة في بلاط آخر . وعلى كل حال فان هذا التنافس قد أبرز من الملكات ما كان خفياً ، ومن الشخصيات ما لولاه لكان نسياً منسيا ، وبذلك كانت الحياة الأدبية في هذا العصر أزهى وأزهر منها في كل عصر آخر من عصور العرب في الأندلس ، فان عدد الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر لا يكاد يأتي عليه الاحصاء .

وكانت الظاهرة الأدبية الغالبة على أدبائه ومثقفيه بل وفقهائه وعلمائه هي الشعر .. فلا تجد عالماً ولا فقيهاً فضلاً عن أديب لا يتعاطى الشعر ولا ينظم منه شيئاً ولو قليلاً . وقد طغى ذلك على ما عند بعض العلماء فكانت صفته الشعرية أبرز جوانب حياته أو على الأقل تجد جانب الشعر من حياته يتكافأ مع جانب العلم ، كما نرى في أبي بكر بن باجة الذي عرف للعالم بكونه أديباً موهوباً وشاعراً بليغاً كما عرف بكونه فيلسوفاً وطبيباً وموسيقياً ونباتياً بارعاً في الجميع . وكم له من نظير بين العلماء وبين الفقهاء . وقد ترجم الفتح في «القلائد» و «المطمح» لكثير من العلماء وما اعتبر فيهم إلا الناحية الأدبية والشعرية كأنها هي المقصودة بالذات وما زاد عليها فانما هو فضل ونافلة من القول والعمل .

واذا ذهبنا نعرض أسماء الشعراء البارزين في هذا العصر نجد في طليعتهم أبا الوليد بن زيدون الذي يطلق عليه بحتري المغرب [1] لرقة ديباجته وتفننه

---

(١) ابن بسام الذخيرة ج ل ص ٣٢٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ضروب الشعر . وحقيقة فانه اذا كان ابن هانيء كالمتنبي يعتمد في إثارة الشعور على إظهار القوة باصطناع الألفاظ الجزلة وتجسيم الأحداث الخطيرة مع تحكيم العقل فيما يعرض من وقائع الحياة ، فان ابن زيدون كالبحتري انما يعتمد على الناحية الوجدانية فلا ضوضاء ولا جلبة وانما هي معان جميلة وصور سحرية لهواجس النفس وأحاسيس الضمير في ألفاظ رقراقة كالثمرة الناضجة تتدفق مائية وحلاوة . فقارئه اذا كان متفتق الذهن مرهف الحس يشعر كأنه ينطق بلسانه ويعبر عن ذات نفسه ، لأنه يمتزج به امتزاجاً ويهيم معه في أودية الخيال الفسيحة فلا ينتبه لنفسه إلا إذا انتبه الشاعر ، فرجع من رحلته وأفاق من غيبوبته .

ويكفي أن يستعرض الباحث قصيدته الفريدة التي يقولها في التشوق الى حبيبته ولادة بنت المستكفي ليرى حسن الافتنان في الوصف وجمال التصوير للعواطف ورقة الشعور في الحب ، وهي القصيدة التي لم يقل – مع طولها – في التشبيب أرق منها[(1)] فبعد أن يفتتحها بوصف حاله في البعد وشكوى الزمان في التفريق بينه وبين حبيبته فيقول :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا، فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا

وإذ هصرنا غصون الأنس دانية ... قطوفها ، فجنينا منه ما شينا

ليُسق عهدكم ، عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

---

(١) السشقندي

يقول في وصفها ونشأتها الارستوقراطية وتوصله اليها بكفاءة المودة :

وبيت ملك كأن الله أنشأه — مسكاً وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه — من ناصع التبر ابداعاً وتحسينا
إذا تأود آدته رفاهية — تدمي العقول وأدمته البرى لينا
كأنما نبتت في صحن وجنته — زهر الكواكب تعويذاً وتزيينا
ما ضر ان لم نكن أكفاءه شرفاً — وفي المودة كاف من تكافينا

ويطول بنا الحال اذا تتبعنا ما فيها من عيون الأبيات وفرائد المعاني . وقد ولد ابن زيدون في قرطبة في أعقاب الدولة الأموية ولكنه لم ينبغ ولم يشتهر إلا بعد انقراضها . وخدم ابن جهور في قرطبة والمعتضد بن عباد في اشبيلية ثم ولده المعتمد وزين له غزو قرطبة فملكها . وكان يلقب بذي الوزارتين ، وبلغ في علو القدر ورفعة الشان ما لم يبلغه أديب غيره . وتعشق ولادة بنت المستكفي وكانت أديبة شاعرة إلا ان الوزير ابن عبدون كان ينافسه في حبها واستأثر بها دونه وكاد له بسبب ذلك مكائد . وتوفي عام ٤٦٣ .

وكان ابن عبدون عند بني الأفطس في بطليوس كابن زيدون عند بني عباد باشبيلية ، وهو نظيره في الأدب والشعر . وسيّر في رثاء مواليه لما دالت دولتهم على يد المرابطين قصيدته الخالدة التي يقول فيها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر — فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك منصحة — عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان أبدى مسالمة — والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه — يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا يغرنك من دنياك نومتها — فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي ــ أقال الله عثرتنا — من الليالي ــ وخانتها يد الغير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

في كل حين لها في كل جارحة منا جراح وان زاغت عن النظر
تسرُّ بالني ، لكن كي تغرَّ به كالأيم ثار الى الجاني من الزهر

... وقد ذكر فيها مصارع الملوك وعظماء الرجال الى زمنه ، ثم بكى بني الأفطس بما لم يبك به شاعر دولة . ومن أبياتها الفذة هذا البيت الذي عبَّر فيه عن عَلَوِيَة في براءة عُلْوِيَة :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت عليًّا بما شاءت من البشر

ويقول بعده مشككاً في اغتيال الحسن بن علي بما هو أبلغ من اليقين :

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر

ومنها في ذكر المتوكل وولديه العباس والفضل من بني الأفطس :

ويح السماح ووبح البأس لو سلما وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية تعزى سماحاً اليهم لا الى المطر

الى أن يقول :

على الفضائل ـ إلا الصبر ـ بعدهم سلام مرتقب للأجر منتظر

وبالجملة فانه مهما قيل في وصف هذه القصيدة وتقريظها فان القائلين لم يوفوها حقها ولم يكونوا مبالغين فيما قالوه عنها . وأحسن شيء فيها هو ما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء على ضياع ملك سادته ، وإبادة الدهر لهم من غير أن يعرض بخصومهم المرابطين ولا أن يتناولهم بأدنى تجريح ، وتلك لعمري براعة تشهد له بحسن التصرف في القول والتفنن في الكلام . وكان المتوكل بالمكان الذي وصفه ابن عبدون وأعظم نبوغاً في العلوم والآداب مع رسوخ قدم في الجود والشجاعة . ولم يكن في ملوك الطوائف أفضل منه ولا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من المعتمد بن عباد ، فانهما كانا فرسي رهان في جميع الفضائل وخاصة العلم والأدب . وكان المعتمد أشعر والمتوكل أكتب (١) .

واذا ذكرنا المعتمد فلا بد أن نعطي صورة مصغرة عنه وعن أدبه ، فقد كان هذا الملك الشاعر فذاً في الملوك ، فذاً في الشعراء . حتى لقد بلغ من شأنه أنه لا يمكن أن يذكر ملوك الطوائف بل ملوك الأندلس على العموم ولا يذكر المعتمد ، وانه لا يمكن أن يذكر شعراء الأندلس أو الشعر العربي على العموم ولا يذكر المعتمد . وكان مما انطوى عليه من الفضائل واحتواه من المكارم بحيث لو لم يثبت وجوده تاريخياً لقلنا انه شخصية خيالية أضفى عليها الشعر والقصص حللاً وبروداً من الإجلال والتقديس . ففي حالة الشدة والبأس نجده مكافحاً عبقرياً لإثبات ملكه وتوسيع نفوذه ، ومجاهداً متفانياً في صد موجة الاكتساح الاسباني الذي أراد أن يستصفي الأندلس في أواسط القرن الخامس . وفي حالة الرخاء والنعيم نجده ذلك المترف المرفه الذي أسرف في المتاع وأمرف في الاستهتار حتى كان له يوم الطين الذي لم يكن لملك غيره (٢) . وفي الشعر والأدب نجده ذلك العلم المفرد بين الملوك والرؤساء ، قد انقطع لمطارحة شعراء وقته من وزراء وكتاب بالقصائد البليغة والأبيات النادرة حتى يحسبه الانسان أنه لا شغل له إلا قول الشعر والاجتهاد في إجادته وإحسانه . وكيف لا وقد نشأ في بيت الشعر والأدب والرياسة والملك ، فقد كان أبوه المعتضد وجده أبو القاسم شاعرين . وكان لأبيه دار مخصوصة بالشعراء وديوان تقيد فيه أسماؤهم ، وقد جعل لهم يوماً يفرغ لهم فيه فلا يدخل على الملك فيه غيرهم (٣) .

واجتمع بحضرة المعتمد منهم ما لم يجتمع بحضرة غيره ، فكان عنده ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة ، وكل واحد من هؤلاء فيه كفاية .

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٣

(٢) انظر النفح ج ٢ ص ٤٨٤

(٣) النفح ج ٢ ص ٤٦٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على أن شخصية المعتمد زادت بروزاً بهذه النكبة التي حاقت به وتركت الأكباد تتقطع حسرة على ما أصابه من أسى وفضيحة بعد سابق العز والسلطان . وزاد شعرُ المعتمد في هذه المدة إثارة للبلابل في الصدور وتحريكاً للشجو والنفوس ، فكان والحق يقال أشجى شعر قيل في نكبة حقت بعظيم . ومن شعره هذا :

لما تماسكت الدموع ... وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة ... فليبدُ منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو ... ع على فمي السم النقيع
إن تستلب عني الدنا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ... ع ، أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم ... ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ ... ـص عن الحشا شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ ... ـل اذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن ... بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط الى القتا ... ل وكان من أملي الرجوع
شيم الأُلى أنا منهم ... والأصل تتبعه الفروع

ومنه في يوم عيد وهو بالسجن :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مسرورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين ، والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرتَ في العيد لا عادت إساءته ... فكان فطرك في الأعياد تفطيرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالأحلام مغرورا

واذا ذكر المعتمد ذكر معه بالطبع ابن عمار وزيره ورفيقه ونظيره في الشعر . وهو ممن كان يذهب مذهب المتنبي ويأخذ أخذه في طلب المعالي والتهمم بالسلطان . وشعره مرآة لنفسه القوية وطبعه الجموح . على أنه كسائر شعراء الأندلس رقيق الغزل لطيف المحاولات لفنون الشعر المختلفة ، وكان قد لحق بخدمة المعتضد بن عباد واختص بولده المعتمد ولزمه ملازمة شديدة حتى صار لا يُرى إلا معه . ولما ولي المعتمد على مدينة شلب من قبل والده استوزره وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة وساءت السمعة عنهما ففرق بينهما المعتضد وأبعد ابن عمار عن ايالته فلم يزل مبعداً حتى توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب . ثم وقع بينهما ما أوجب سجنه وقتله . وقد تشفع له ابن عمار واستعطفه ببليغ الأشعار فلم يؤثر ذلك فيه شيئاً ، والملك كما يقولون ، عقيم ، لا يرعى على ولي أو حميم . ومن شعره يستعطفه :

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا سوى أن ذنبي ثابت ومصحح
وإن رجائي أن عندك غير ما يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني لما بيني وبينك من رضى له نحو روح الله باب مفتح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم فكل إناء بالذي فيه يرشح
وقالوا سيجزيه فلان بذنبه فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمي ولكن حلماً للمؤيد يرجح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن شعره قصيدته التي صارت أشرد من مثل [١] في مدح المعتضد، وكانت سبب تقريبه له . وأولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

ومن أبياتها بيت قال فيه المراكشي صاحب «المعجب» انه لم يسمع لمتقدم ولا لمتأخر مثله [٢] وهو قوله :

السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب إن كانت يمينك منبرا

وله حين فرق المعتضد بينه وبين المعتمد ، وهو مما تظهر عليه نزعة المتنبي :

عليّ ، والا ما بكاء الغمائم وفيّ ، وإلا ما نياح الحمائم

وعني أثار الرعد صرخة طالب لثأر وهز البرق صفحة صارم

وما لبست زهر النجوم حدادها لغيري ولا قامت له في مآتم

واذا كان عصر ملوك الطوائف قد انتهى مع هؤلاء الشعراء ، فانه قد امتد مع غيرهم كابن اللبانة وابن خفاجة وسواهما الى عصر المرابطين .. فأما ابن اللبانة فهو أبو بكر محمد بن عيسى اللخمي من أهل مدينة دانية . وقد اشتهر بوفائه للمعتمد ورثائه له بعد موته ، وهو شاعر من أهل الإجادة والإحسان . وفد على المعتمد في أواخر أيامه ومدحه . ثم بعد زوال ملكه لحق بجزيرة ميورقة وبها مبشر العامري فحظي عنده ، وله فيه أمداح . ومنها قصيدة غريبة المنزع جعلها من أولها إلى آخرها ، صدر البيت غزل وعجزه مدح ، وهي :

وضحت وقد فضحت ضياء النير فكأنما التحفت ببشر مبشر

وتبسمت عن جوهر فحسبته ما قلدته محامدي من جوهر

وتكلمت فكأنّ طيب حديثها متعت منه بطيب مسك أذفر

(١) الشقندي

(٢) المعجب ص ١١٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هزت بنغمة لفظها نفسي كما — هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فجرت على — عاداته في المذنب المستغفر

وأما ابن خفاجة فهو شاعر الطبيعة المبدع في وصف آثارها ومظاهرها ، من الرياض والرياحين والماء والغمام والشمس والظل والجبال والأشجار وما إلى ذلك . لم يلتفت إلى منصب ولا إلى جاه . ملأ جمال الدنيا عينيه فمال بكليته إليه ، يغني ويشرب ، ويشعر ويطرب ، إلى أن توفي بسقط رأسه من جزيرة شقر . ومن شعره يصف نهراً :

لله نهر سال في بطحاء — أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه — والزهر يكنفه ، مجر سماء
قد رق حتى ظُن قرصاً مفرغاً — من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها — هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً — متلوياً كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى — ذهب الأصيل على لجين الماء

وله في بلاد الأندلس :

يا أهل أندلس لله دركم — ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم — ولو تخيرت هذي كنت أختار
لا تخشوا بعدها أن تدخلوا سقراً — فليس تُدخَل بعد الجنة النار

وبعد ملوك الطوائف والمرابطين أظل الأندلس ملك الموحدين ، وقد بلغت الى أقصى غايات المجد العلمي والرقي الفكري . ففي عهدهم نبغ الفلاسفة العظام مثل أبناء زهر وابن طفيل وابن رشد ، وزادت النهضة الأدبية اتساعاً حتى أصبح الشعراء يعدون بالعشرات . ولقد جلس لهم المنصور الموحدي يوماً وجاءوا يهنئونه بانتصاره في موقعة حربية ، فكانوا من كثرتهم إنما يلقون البيت الأول من قصائدهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويضعون الورقة التي كتبت فيها القصيدة أمامه ، فما انتهى عددهم حتى كانت الأوراق تحول بينه وبين الناس من كثرتها (١) . ولا نستطيع أن نعد جميع الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر ، وانما نقتصر على ذكر ثلاثة أفراد منهم نعتقد أنهم يمثلون عصرهم أحسن تمثيل . وهؤلاء هم الرصافي وابن مجبر وصفوان ابن ادريس .

فالرصافي هو محمد بن غالب البلنسي ، نسب الى رصافة بلنسية ، وكان شاعراً مجيداً نزيهاً عفيفاً ، وله في عبد المؤمن بن علي القصيدة المشهورة التي أولها :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور

وفيها يصف جبل طارق - وكان عبد المؤمن يسميه جبل الفتح - وصفاً بليغاً ويذكر مجمع البحرين وأسطول الموحدين الحربي ويمدح المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن مشبهاً لهما بموسى ويوشع عليهما السلام . وهاك قوله في وصف الجبل :

لله ما جبل الفتحين من جبل معظم القدر في الأجيال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس له من الغيم جيب غير مزرور
معبراً بذراه عن ذرى ملك مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمسي النجوم على إكليل مفرقه في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد من ثناياه بما أخذت منه مفاحمُ أعواد الدهارير
محنك حلب الأيام أشطرَها وساقها سوق حادي العير للعير

وابن مجبر هو أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهري من أهل بليش ، قرية قرب مالقة ، كان من أشعر أهل زمانه وكان مختصاً بالمنصور الموحدي ملازماً له ، وكان المنصور يعظمه ويقدمه على غيره من شعراء وقته وله

(١) النفح ج ٢ ص ٤٣٠

فيه أمداح كثيرة ، وهو القائل في وصف المقصورة «الأوتوماتيكية» التي أنشأها المنصور بجامعه بمدينة مراكش بعد ما عجز الشعراء عن وصفها :

طوراً تكون بمن حوته محيطة فكأنها سور من الأسوار
وتكون حيناً عنهم مخبوءة فكأنها سر من الأسرار
وكأنها علمت مقادير الورى فتصرفت لهم على مقدار
فاذا أحست بالأمير يزورها في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ثم تخفى بعده كتكون الهالات للأقمار

وأما صفوان بن ادريس فهو أبو بحر التجيبي من أهل مرسية ، كان شاعراً وكاتباً وله كتاب «زاد المسافر» الذي هو أحد المجموعات التي تؤلف خزانة الأدب الأندلسي ، ومن شعره الحزبة المشهورة بين أدباء المغرب وأولها :

جاد الربى من بانة الجرعاء نوآن من دمعي وغيم سماء
فالدمع يقضي عندها حق الهوى والغيم حق البانة الغناء
خلت الصدور من القلوب كما خلت تلك المقاصر من مها وظباء
ولقد أقول لصاحبيّ وإنما ذخر الصديق لآكد الأشياء
يا صاحبي ولا أقلّ - اذا أنا ناديت - من أن تصغيا لندائي
عوجا بجار الغيث في سقي الحمى حتى يرى كيف انسكاب الماء
ونسن في سقي المنازل سنة نمضي بها حكماً على الظرفاء

ويأتي بعد هذا العهد عهدُ غرناطة وملوك بني الأحمر ، وحسبنا أن نذكر غرناطة فنذكر الشعر والشعراء والحياة الأدبية الراقية التي قضتها هذه المدينة في عهد ملوكها الرافلين في حلل النعيم في قصور الحمراء الزاهية وبين ظلال جنات العريف الوارفة . ولا حاجة بنا الى ذكر شعراء هذا العهد ، فان واحداً منهم يكفي للتنويه بنهضة الشعر فيه وهو لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا شعراً وأدباً ، وعفى ذكره على السابقين واللاحقين من أدباء الأندلس ، فما من مجال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

إلا وله فيه ذيل سحب ، وما من موضوع إلا وقد تناوله بذراع رحب ، وبقدر ما له في الشعر من الآيات البينات ، فان له في النثر الفني والكتابة العلمية والتاريخية الآثار الخالدات . وبالجملة فقد كان معجزة قطره ومفخرة عصره ، ولم يبالغ من قال فيه انه شاعر الدنيا وأديب الأندلس ؛ اذا كان يقصد دنيا العروبة في هذا العهد . ولا نستطيع أن نقدم نماذج من شعره تمثل نفسيته وطابعه الأدبي ، فان شعره كثير ومناحيه الفنية متعددة ، فلنقتصر على قطعة أو قطعتين منه « وعن البحر اجتزاء بالوشل » قال يتشوق :

سقى الله نجداً ما نضحت بذكرها   على كبدي إلا وجدت لها بردا
وآنس قلبي فهو للعهد حافظ   وقلّ على الأيام من يحفظ العهدا
صبور وان لم يبق لي إلا ذبالة   اذا استقبلت مسرى الصبا اشعلت وقْدا
وقد كنت جلداً قبل أن يُذهب النوى   ذمائي وأن يستأصل العظم والجلدا

وقال مخاطباً السلطان أبا عنان المريني وكان وفد عليه من قِبَل سلطانه الغني بالله في جملة من أعيان مملكة غرناطة مستنجداً به ، فحين مثل بين يديه أنشده وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر   علاك ما لاح في الدجا قمر
ودافعت عنك كف قدرته   ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى   لنا وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس   لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
ومن بها مذ وصلت حبلهم   ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وجملة الأمر أنه وطن   في غير علياك ماله وطر
وقد أهمتهم نفوسهم   فوجهوني اليك وانتظروا

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات وأذن له في الجلوس وقال له ما نرجع اليهم إلا بجميع طلباتهم . قال القاضي أبو القاسم الشريف شارح مقصورة حازم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهو من مشائخ لسان الدين وكان معه في هذه الوفادة : «ما سمعنا بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا» . ولا شك أن ذلك من براعة لسان الدين الرائعة وبلاغته الفائقة .

* * *

وهذا الاستعراض على سرعته لا يتم إذا لم نتعرض لنوابغ النساء الأندلسيات في الشعر ، وما كان لمشاركتهن من بليغ الأثر في الحياة الشعرية بالأندلس . وقد بدأ نبوغهن مبكراً في أول عهد الدولة الأموية ؛ لما قلنا من أن الشعر الأندلسي نشأ حضريًا من أول يوم . ونبوغ النساء في العلوم والفنون هو وليد الحضارة والحياة العقلية المترفة .

وقد كانت لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر من الأديبات الشاعرات المتفوقات ، وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت أبي الحسين الشاعر ، والشاعرة الغسانية ، وحفصة بنت حمدون . واشتهرت بعد هؤلاء عائشة القرطبية التي لم يكن في زمنها من حرائر النساء من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة ، تمدح الملوك وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ، وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وماتت عذراء سنة ٤٠٠ (١) . ثم اشتهرت في القرن الخامس مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري الشاعرة الأديبة التي كانت تعلم النساء الأدب ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ومولاة أبي المطرف بن غلبون العروضية ، وولادة بنت المستكفي الشهيرة ، ومهجة القرطبية ، ونزهون الغرناطية ، وحمدونة بنت زياد المؤدب ، والعبادية والدة المعتمد ، واعتماد محظيته وبُثَينة بنته وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وغاية المنى جاريته . ثم اشتهرت في أوائل القرن السادس الأديبة الشلبية ، وأسماء العامرية وحفصة الركونية وغيرهن ممن استوعب المقري ذكرهن وأتى على كثير من أشعارهن ولطائفهن .

(١) النفح ج ٢ ص ٤٩٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونحن نكتفي بذكر اثنتين من هذا العدد الكثير وهما ولادة وحمدونة :

فأما ولادة فهي بنت الخليفة المستكفي بالله ؛ كانت واحدة زمانها في الأدب والشعر ، حسنة المحاضرة لطيفة المعاشرة مع الصيانة والعفاف . وكان ابن زيدون يتعشقها وله فيها القصائد الطنانة والمقطعات البديعة ، وكانت أولاً تطارحه شعراً بشعر وتبادله حباً بحب ، ثم قلبت له ظهر المجن وصارت تهجوه ، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير . ومن بديع شعرها ما كتبت به إلى ابن زيدون :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك مالو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وأما حمدونة بنت زياد المؤدب فهي التي يقال لها خنساء المغرب لقوة شعرها وسمو إبداعها . ولها المقطوعتان العجيبتان المشهورتان بالمشرق والمغرب واللتان ما زال أهل البلاغة يجعلونها مثالاً أعلى للنسج على منواله والحذو حذوه وهما : هذه :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وهذه :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولعلنا وقد انتهينا من هذا الاستعراض ، قد ظهرنا منه بالرغم من قصره على تلك الظاهرة التي أسلفنا الكلام عليها ، وهي أن هذا الشعر الأندلسي حضري مترف لا جاهلية له ولا بداوة ، وأنه منذ نشأ كان كذلك ، لم يحمل من معاني الشعر الجاهلي وألفاظه ما حمله غيره من الشعر العربي في الأقطار الأخرى غير الأندلس ، ولم يمثل غير نفوس أصحابه ومجتمعهم ومحيطهم .. على أنه لما ضاق به مجال التعبير ، واحتاج الى التحرر من القيود اللفظية لم يخرج عن مواضعات القوم إلا بمقدار ما تسمح به طبيعة اللغة العربية المحافظة على إرث الأجداد ، فاخترع هذا التوشيح الذي هو فن أندلسي محض ، أدخل على الشعر العربي تحسيناً في الصناعة كما جعله ألين مراساً وأسلس قياداً ، مما كان عليه قبل ، إذ كانت القافية تتحكم في الشاعر فتركبه المراكب الصعبة للبلوغ إلى مقصده ، ويضطر بذلك الى استعمال الألفاظ المألوفة وغيرها ، دع عنك سآمة النفس ونبو الطبع عن سماع نغمة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير منذ بدء القصيدة الى نهايتها . وربما تكون طويلة جداً ، ولا كذلك هذا النظام البديع الذي يقوم عليه التوشيح من الأسماط والأغصان ؛ فانه أوقع في النفس وأخف على السمع . وبه ظهرت براعة أهل الأندلس فانهم جددوا وحافظوا في آن واحد ؛ جددوا في أسلوب الشعر ونظمه ، وحافظوا على أوزان العروض والقافية فلم يقعوا فيما وقع فيه بعض أدباء العصر من الدعوة الى نبذ القافية جانباً والتحلل من الأوزان والبحور الشعرية المعروفة ، فلما تناقض عملهم مع طريقة الشعر المعروفة دعوا ذلك بالشعر المنثور ؟ ...

وأشار ابن خلدون الى قريب مما ذكرناه ؛ من أن اختراع التوشيح كان نتيجة لكثرة الشعر وحب التفنن فيه فقال : « أما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكثرون منها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد الى آخر القطعة »[1] .

وكان المخترع لهذا الفن هو مقدم بن معافى شاعر الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذه عنه ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد » ، ولكن الذي أحكم صناعته ونهج طريقته هو عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية .. قال أبو بكر بن زهر : « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى غصن نقى مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لمحا قد عشقا قد حرم

وكان بعد عبادة ، ابن رافع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، ثم الأعمى التطيلي ،يحيى بن بقي وأبو بكر بن باجة الفيلسوف الموسيقار المشهور ، ثم محمد بن أبي الفضل بن شرف وأبو بكر بن زهر الحكيم المشهور وسهل بن مالك وغيرهم كثير . واشتهر على الخصوص بين أدباء المغرب موشح ابن سهل الاسرائيلي شاعر اشبيلية وأوله :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله لسان الدين بن الخطيب فقال :

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما في الكرى أو خلسة المختلس

وكان ابن الخطيب من المبرزين في صنعة التوشيح شأنه في كل فن من فنون الأدب .

(١) المقدمة ص ٦٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يمتاز الشعر الأندلسي من ناحية الصناعة اللفظية فحسب ، بل إن له مميزات من الناحية الموضوعية لا تكاد تخفى على أحد ممن تعمق في دراسة الأدب العربي على العموم وقارن بين الشعر الأندلسي وغيره من شعر الأقطار العربية الأخرى .. وقد تقدمت الإشارة الى هذه البراعة في الوصف التي تميز بها الأندلسيون خاصة في وصف مظاهر الطبيعة وآثارها البديعة من الرياض والأزهار والرياح والأمطار والمياه والأنهار وما الى ذلك حتى كان شاعرهم في هذا الباب وهو أبو اسحق بن خفاجة فذاً في شعراء العربية كلهم لم ينافسه أحد منهم في استحقاق لقب شاعر الطبيعة .. ومع ذلك فان موضوعاً آخر لم نر من نبه عليه ، ولم ينتبه اليه الشعراء العرب إلا في هذا العصر الحديث حين وجدت بواعثه وأسبابه ، فصار عندهم من الموضوعات الشعرية الرئيسية ، ألا وهو الشعر الوطني . فالأندلسيون بما كانوا فيه من عراك دائم مع القوات الاسبانية التي تنتقص بلادهم من أطرافها يوماً فيوماً وتحاول أن ترمي بهم خارج حدود الجزيرة الايبيرية في كل وقت وحين ، ولم يزالوا كلما خرجوا من بلدة أو قرية وفقدوا السلطة على مدينة أو ناحية ، يبكون سالف مجدهم وعزهم ويحنون الى معاهد أنسهم ولهوهم ويتفجعون لما نزل بها من الذل والهوان ويستثيرون الهمم لإنقاذها واسترجاعها من يد الكفر والطغيان .. وهكذا تكوّن موضوع جديد في الشعر العربي وهو الشعر الوطني الذي يضرب على وتر الوطنية ويستغل الحماسة الدينية للجهاد والقتال من أجل تحرير البلاد .

وهذه الوطنية لم تكن عند الأندلسيين شعوراً عابراً ولا فكرة عارضة ، وانما هي عقيدة ثابتة وإحساس متأصل في نفوسهم . يدلك على ذلك كثير من أقوالهم حتى في غير الشعر الذي نحن بصدده .. فمثلاً نجد الفتح بن خاقان عند ترجمته لابن حزم العالم المشهور يفتخر بأنه لم يرحل الى المشرق وأن نبوغه فاق من رحل اليه [1] . ونجد إسمعيل بن حبيب في مقدمة كتابه « البديع في وصف الربيع »

(١) مطمح الأنفس ص ٦٣

يباهي بأنه لم يورد فيه شعراً إلا لأهل بلده الأندلس ، ويزري بأشعار المشارقة التي ابتذلت فلم تعد النفوس تميل الى سماعها ، ثم يشير الى سبق الأندلسيين للمشارقة في أحسن المعاني مجتلى ، وأطيبها مجتنى ، وهو الباب الذي تضمنه هذا الكتاب (يعني وصف الربيع) فلهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ، ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه» . ونرجع الى ما كنا بسبيله من الشعر الوطني الأندلسي فنورد منه بعض الأمثلة . يقول أبو المطرف بن عميرة في قطعة بليغة :

زدنا على النائين عن أوطانهم ... وان اشتركنا في الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استسقوا لها ... من بعد ما شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا ... مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا ... لعدونا ؛ أفيستقيم لها الهوى ؟

ويقول أبو عبد الله الفازاري في قطعة أخرى :

الروم تضرب في البلاد وتغنم ... والجور يأخذ ما بقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة ... والجند يسقط والرعية تسلم
وذوو التعين ليس فيهم واحد ... إلا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلطف بالجميع ويرحم

فهاتان القطعتان من أشجى الشعر الوطني وأبلغه ، ولا تقصران عما ينظم منه الآن في البلاد العربية التي يتلاعب بها الاستعمار (١) .

* * *

ودون هذا وذاك فان هناك فنوناً أخرى من النظم برع فيها الأندلسيون وتفوقوا على غيرهم وان كانت لا تعد من الشعر في حقيقة الأمر ، وهذه مثل الأنظام العلمية التي تضم أشتات العلوم وقواعدها وتتضمن أبوابها وفوائدها ،

(١) انظر فصلاً خاصاً بهذا الموضوع في كتابنا «التماشيب» .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن أول الموضوعات التي ضبطها بالنظم وقيدها بالوزن التاريخ ، فلابن عبد ربه أرجوزة ذكر فيها غزوات عبد الرحمن الناصر [١] . بل قبل ان ليحيى الغزال الذي عاش قبل ذلك بكثير تاريخاً للأندلس منظوماً . وكذا لابن الخطيب تاريخ منظوم وهو المعروف « برقم الحلل في تاريخ الدول » . وفي غير التاريخ نرى منظومة لابن عبد ربه أيضاً في علم العروض وهي في غاية السلاسة [٢] . كما نرى لابن مالك الجياني « ألفية » النحو المشهورة ولابن عاصم الغرناطي « تحفة الحكام في علم القضاء والأحكام » ، وغير هذه المنظومات كثير .

على ان البراعة الحقيقية التي امتاز بها الأندلسيون في هذا الصدد هي الأنظام العلمية الملغوزة . وتختلف طرق الألغاز فيها عندهم ، فبعضها لا تكاد تشعر بأنه نظم علمي ، وانما تقول انه قصيدة شعرية فريدة في حين انه يتضمن اشارات ورموزاً الى قواعد علمية معروفة . وبعضها يكون فيه الرمز واضحاً لا خفاء معه وانما فائدته أنه يتضمن المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة بحيث تشتمل القصيدة ذات الأبيات المعدودة على قواعد علم كامل بجميع مسائله وأغراضه . فالأول كما في قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرج الاشبيلي التي ضمنها أصول علم الحديث ولم يصرح بشيء من غرضه فجاءت كأنها قصيدة غزلية بحيث لو عرضت على عربي خالص لما فهم منها إلا ما يفهم من قصائد الشوق والوجد وهذا أولها :

غرامي صحيح والرجا فيك معضل ودمعي ووجدي مرسل ومسلسل

والثاني كما في قصيدة الشاطبي في علم القراءات ، وهي مشهورة بين علماء هذا الفن ، وتعد من أمهات الكتب فيه . وقد بناها على إشارات الحروف الأبجدية ، وبذلك توصل الى اختصار هذا العلم الواسع وتضمينه في نظم مهما كثر فانه قليل بالنسبة الى سعة موضوعه [٣] .

(١) انظرها في ج ٢ من العقد .
(٢) انظرها في الجزء ٣ من العقد .
(٣) توسعنا في الكلام عن هذا الموضوع في فصل ضمناه كتاب « واحة الفكر » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

٠٠٠ وقد ظهر بهذا العرض السريع وهذه الإلمامة العجلى أن الشعر الأندلسي لم يتأثر بشيء خارجي عنه ، حتى الأدب المشرقي كان تأثره به في دائرة عامة ، وأما السمات الخاصة به فانما كانت من وحي البيئة والمحيط ٠ وهذه العناصر الجديدة التي وجدت فيه مع الأيام سواء في اللفظ أو المعنى إنما كانت ذاتية وتلقائية ، فلا صحة لما يقال من أن الأدب الأندلسي تأثر بالأدب الاسباني وأخذ عنه ، كما أثر هو عن حق في هذا الأدب وكما أخذ هذا الأدب من غير شك عنه ٠ فليت شعري أين هو هذا الأثر ؟ وما هذا الذي أخذه الأدباء الأندلسيون عن الأدباء الاسبان ؟ وأي فن جديد هذا الذي أضافه الأدب الأندلسي الى فنون الأدب العربي باستثناء الموضوع الذي لمحنا اليه وهو الشعر الوطني الذي كان وليد الظروف السياسية الداخلية للبلاد ؟ وما باله لم يُطلّ على دنيا القصص والتمثيل ، إن كان حقاً تأثر بالأدب الاسباني ، وليس في هذا الأخير ما يؤخذ أفضل من هذين الفنين ، لو كانا موجودين فيه إذ ذاك ؟

أما القول بأن مرثية ابن عبدون لملوك بني الافطس هي من قبيل الشعر القصصي ، وانها تدل على اقتباس هذا الفن من الاسبان ، فانما هو قول من يلقي الكلام على عواهنه ولا يعنى بتحقيق ما يقول ٠ ولهذه المناسبة نشير قبل أن نختم هذه الكلمة ، الى أن هناك قصيدة أخرى شبيهة بمرثية ابن عبدون ، ولكن قل من يتنبه لها مع أنها في غرض الرثاء مثلها وتضمنت من عبر الدهر ما يجعلها مأساة تاريخية كقصيدة ابن عبدون ٠ وهذه هي قصيدة الأعمى التطيلي في رثاء أحد فتيان اشبيلية الأجواد وكان يتعهده ويحسن اليه ، فأصبح قتيلاً ذات يوم ٠ وأولها :

خذا حدثاني عن فل وفلان   لعلي أرى باق على الحدثان (١)

عبد الله كنون

(١) انظر قلائد العقيان ص ٢٨٦ – ٢٨٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net